العودة

بقلم : احمد عبد الحميد

كانت هناك حتى اللحظة الأخيرة ..

احتضن المضجع الابدى جسد وحيدها .. وغاب في جوف الثرى .. حيث يذوب كل صوت .. ويتلاشى كل حس وحركة .. ويتبدد الصدى الهزيل لبقايا وقع أقدام المشيعين .. التي راحت تبتعد .. وتبتعد ..

ثم .. يطبق الصمت الرهيب .. ويسلم العدم كل شيء ..

ولقد كانت الام الثكلى ترقب كل ما يدور امامها .. هم يقومون بكل الاجراءات التي سبقت النهاية .. يستبد بها حزن عاصف .. يتملكها جزع عنيف .. والدموع التي كست عينيها تحقق حلكها نظراتها الواهنة الخائبة الكليلة ..

انها لا تملك ابدا أن تحول دون عملية انتزاعه منها على هذه الصورة القاسية .. وقد انحنى جذعها الباحل الذي قوسته الصدمة الساحقة .. وهي تبذل جهدا عنيفا .. حتى لا تسقط على أيديهم .. بثقل كل يد .. وتتوسل الى كل قلب .. ان يرحموا ضعفها وشيخوختها .. ويتركوه لها لحظات فقط .. تأخذه بين احضانها .. تلثم كل قطعة فيه .. كونتها هي ولا احد سواها .. وسهرت عليها هي كل لحظة من لحظات عمره ..

انها تود فقط أن تودعه الوداع الاخير .. الذي لا لقاء بعده .. وتلقي نظرة أخيرة على محياه الحبيب الغالي العزيز .. الذي كان يملأ حياتها اشراقا وبسمات وضحكات ..

وكادت تهتف وتصرخ من أعمق أعماق نفسها

ـ اتركوه .. اتركوه ايها الخابرة .. حرام أن تنتزعوه .. دعوه لي .. دعوه .. دعوه ..

ولكن الكلمة احتبست في صدرها المتداعي .. ولم تفلت من بين شفتيها الى آذان هؤلاء الذين راحوا يعملون في

صمت روحوم .. وهم يودعون وحيدهم مثواه الاخير .

وهي في هذه اللحظات القاصلة الحاسمة في حياتها .. لم تذرف دمعة واحدة .. حفت الدموع .. ولم يكن هناك أدنى أمل في أن ترهبها دمعة واحدة .. لتسقط فوق قسم الشقاء المكدس في صدرها .. عند أن لفظ وحيدها الشاب آخر أنفاسه .

وهي لا تدري كيف انهت هذه اللحظات .. كيف غاب وحيدها ؟ وكيف أنها لم تشارك في ارقاده .. وهي الوحيدة التي أرقدته عشرات المرات .. بل مئات المرات .. فوق مضجعه المريح .. وشدت عليه الغطاء وأرقدته .. حتى لا تتسلل اليه نسمة واحدة باردة قد تتسبب في ايذائه .

مئات المرات قامت بهذه العملية .. وهو طفل في عمر الزهور .. وهو صبي شقي عنيد .. وهو غلام يافع جميل .. حتى وهو شاب قد اصبحته رجولة مبكرة جذابة .

في كل هذه المراحل من عمره القصير .. لاتذكر أنها أهملت مرة واحدة .. القيام بارقاده والاطمئنان عليه .. حتى يغمض عينيه الجميلتين .. ثم تقبله وتلقي عليه تحية المساء .. وتتركه لاحلامه البهائية .

ولكنهم هذه المرة .. حرموها هذا الذي اعتادت عليه السنين الطوال . مع أنها المرة الاخيرة .. الاخيرة

والذي يدهشها انها كانت في كامل وعيها .. تدرك كل صغيرة وكبيرة .. فهي عند قطعت الى هذا التجهم الذي يكسو كل وجه حولها .. والحزن الذي يخيم فوق الجميع .. والدمع في عيون أصدقائه .. الذين لم تشهدهم معه الا مرحين صاخبين .. عندما كانت تستقبلهم في زياراتهم لوحيدها .. وعندما تفتح لهم صدرها وعندما تقدم لهم العشاء .. وقلبها يرقص على أنغام ضحكاتهم .. ويطرب لرنين لهوهم .. ويسعد مع صخبهم وصحبتهم .

لقد حضروا جميعا .. كما اعتادوا أن يحضروا .. ولكن بلا ضحكات ولا صخب ولا لهو ولا مرح . انما يحملون وجوها يرتسم على قسمات الوجوه .. واحزانا تاكل القلوب .. ودمعات تسقي العيون . انها تجسدهم جميعا على شيء واحد .. هذه الدمعات في عيونهم .. فلقد ظلت هي تذرف مثلها حتى نضب معينها .. وذلك عند أن أصيب بالمرض المفاجيء الذي لم يمهله .. واختطفه منها . احتطفه لتلتقفه أيدي هؤلاء الذين أوشكوا الآن على الانتهاء .. من اسقاط وحيدها في مثواه الاخير .. مع الفراغ والفناء والعدم .

وعندما انتهى كل شيء .. استداروا في خطى متثاقلة .. وتركوا انهيارها وحيدا .. وحيدا . ولم يتركوها هي .. اسندوها الى ادرعهم العتيدة .. ودفعوها معهم في الموكب العائد الحزين .. دون ان يمنحوها فرصة واحدة .. لتلقي نظرة أخيرة على بقعة الارض الحمراء ، التي غاب فيها وحيدها ولن يعود .

وعصت الام .. تتوكأ على أكثر من ذراع امتدت اليها واسندتها .. للاقارب والاصدقاء .. وقد انتهى وحيدها من حياتها الى الابد .

وعصت الايام نهارها .. ثقيلة بطيئة

مريره ، الفراغ الموحش من حولها .. يستبد وحشته من العدم .. والاحزان التي تملأ حياتها .. كأنها كل أحزان العالم قد تجمعت لديها عبر الدهور الطويلة . وحطت على قلبها التاعس الصغير المسكين

كان هذا الحزن في بادئ الأمر يثير دهشة الصغير .. ويحرك لوعة الحماد . حزن صامت هادئ رزين .

وهي لم تطق صبرا على البقاء في نفس الدار التي كانت تعطرها أنفاس وحيدها الراحل .. وتفوح فيها رائحة شبابه الزاهر السعيد .. وتذكرها كل زاوية وكل نغمة .. بوحيدها الذي ذهب ولن يعود .

أرادت أن تفر من هذه الدار المشحونة بذكريات وحيدها والتي تنعكس في كل لحظة صورا من الماضي البعيد والقريب أرادت أن تفر من قسوة ما تصابه ليل نهار .. فانتقلت الى بيت آخر .. في مدينة أخرى . وقررت الا تغادر البيت الا محمولة على الاعناق .. حيث تنعم بالراحة الابدية .. الى جوار وحيدها الراحل .

واعطوت الام على نفسها .. أغلقت باب هذا البيت الجديد في وجوه الناس جميعا . لم تسمح لاحد بزيارتها .. ولم تحدث في نفسها أدنى رغبة في أن تحدث أحدا . الوحشة تملأ داخلها كما تملأ الدار الخاوية من حولها . وطيف وحيدها لا يفارق خيالها لحظة واحدة .

وبدأت تحس ان نفسها الكبيرة ، التي تحس أحزانا واهمة سامية . هذه النفس قد بدأت تهرب منها .. وشيء جديد بدأ يتسلل الى حياتها . انه نوع من السخط والتعب .. نوع من الضيق والكراهية .. كلما تحدثت عند أسماعها ضحكات صبية مرحة .. تذكرها على الفور بضحكات الشاب الراحل الذي اختطفه منها القدر . وتسارع بفتح نافذتها تفتش بنظرات عامية عن صاحب الضحكات الشابة المرحة .. وقد عبس قلبها .. وكشرت عن انيابها .. وتتمنى لو تحطمت هذه الضحكات .. ويصاب صاحبها بمثل ما أصيب به وحيدها . كانت تمكث الساعات الطوال جامدة العين .. صامتة كأنها تمثال من الصخر ثم فجأة تثور وتسب العالم كله .. وتلعن الناس جميعا .. أولئك الذين يتقلبون في المرح والسعادة .. بينما حرمت هي من متعة السعادة والهناء .. الذي ذات وانتهى بغياب وحيدها .

لقد هربت منها نفسها الوادعة الخيرة .. ربما الى غير عودة .. تماما كما غاب عنها وحيدها .. بلا عودة .

وفي البيت الذي هربت منه الام في المدينة الاخرى .. كانت لا تزال تعيش اختها عانسة راضية .. مع زوجها واسرتها الصغيرة . وكانت الاخت قد ادركت ما اصاب اختها الثكلى .. وربما طرأ عليها من تغير كبير . وكانت نادرا ما تأتي لزيارتها .. حتى لا تصب عليها جام حسدها وحقدها وكراهيتها المدمرة للعالم بأسره .

وذات يوم .. خطت عليها هذه الاخت .. جاءت لزيارتها عملا بالواجب عليها تجاه الام التعسة المسكينة .

وكان لقاء حافلا فاترا .. أعقبه صمت ثقيل .

وجلست الام الى جوار اختها تطل على

احضان المريض ... تحدق بالصغيرة في الفراغ البعيد الذي يشبه الى حد كبير ذلك الفراغ الموحش الهائل الذي يطبق على حياتها، واندفعت الخواطر المريضة تدور بين جدران رأسها، ما الذي دعا اختها لزيارتها بعد انقطاع طويل عنها ؟ هل جاءت لتشمت بها وتسخر من مصابها ؟

وتكلمت الاخت ... كانما لتجيب على هذه الاسئلة التي تضطرم في رأس الثكلى ... راحت تعتذر عن تقصيرها في الحضور ... فالمسافة بين البلدين بعيدة، وكانت حاملا تعاني المتاعب ... حتى وضعت حملها وهي بين الموت والحياة ... وشاءت ارادة الله ان تحيا ... ويخرج الى الحياة وليدها الصغير .

قالت الاخت الصغيرة هذا ... والوليد في حجرها ... وقد هزته برفق ... فبدا يتحرك وسمعت منه صوت ناعم رقيق .

ولم تكن الأم قد اعارت هذا الراقد في حجرتها شيئا من الاهتمام ... فلما انقطعت اسماعها صوته الناعم ... بدأت تتفحصه في شيء من الفضول .

وعادت الاخت الصغرى تستأنف حديثها ... أخذت تقص على شقيقتها ظروف الحمل ... وعسر الولادة ... والآلام التي عانتها ... والتي كادت ان تخطف روحها من بين جنبيها . والأم صامتة ... قد انشغلت بتأمل الطفل ومراقبة حركاته ... وتفحص قسماته وملامحه الدقيقة ... وتحدق في هذا الوجه الذي يشع براءة وحلاوة ... وقد ابيضت من عينيه نظرات لامعة اخاذة كأنها النور الابيض ... يدور بها حوله في حيرة ... كان يتبسم ويحبس في ثنايا يضحك ويبكي ... ويداه وقدماه في حركة دائبة لا تهدأ لحظة واحدة .

كان حديث الاخت ... والأم لا تالف معرقة في صمتها ... وانظارها مروعة في الطفل الجميل ... ترقبه في اهتمام كبير ... وقد شغلها عن كل شيء حولها ... حتى عن احزانها ... ومصيبتها الفادحة في وحيدها الراحل .

لقد دخلت ظاهرة جديدة حديثة في هذا الدار الحزينة الموحشة ... لتؤكد المعنى الحقيقي بان في الحياة حركة وتجددا وحيوية ... وكان هذا الطفل وهو يناغي بصوته الرقيق ... او يسحر بضحكة صافية او يضرب الهواء بيديه وقدميه ... يريد ان يثبت للأم التي طحنتها الأحزان ... أنه على الرغم من ضآلة جسده مخلوق عظيم ... صورة حقيقية للحياة ... بكل ما فيها من ضجة وحركة واستمرار . كانت وهي تنظر اليه تشهد صفحة حافلة من ذكريات مضت ... وشباب ولى ... صفحة كاملة زاخرة بكل الصور واللوحات الحية التي عاصرتها مع وحيدها الراحل .

وتحولت العيني التي كانت تنسكب في نظراتها ... من الفضول الى الشغف ... ومن القسوة الى الحنان . أحست المرأة لاول مرة منذ ان فقدت وحيدها ... بشيء جديد يدب في قلبها الموحش ...

وحيل الى الأخت الصغرى أن أختها الثكلى لا تعير حديثها أي اهتمام ... فقررت ان تختصر من امد الزيارة ... فلعلها قد اثقلت عليها وضايقتها .

وتحركت تريد ان تترك الغرفة

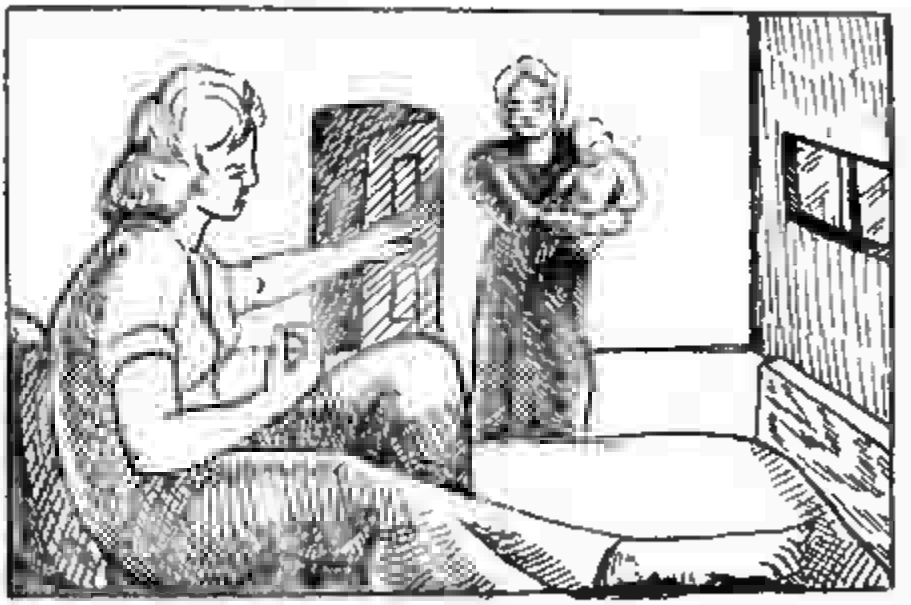

ولكن اخها الكبرى مدت ذراعيها وتناولت الصغير .. وضمته بين ذراعيها في احضانها .. وجلست عليه في رقة ووداعة .

وما ان احس الصغير بنفسه على صدرها . حتى ابتسم لها بسمة حلوة بريئة صافية . وهما نظرت الى فمهما بسمة رقصت على شفتيها الحانيين . وكانت اول بسمة تنزل الى شفتيها في عطلة من احزانها . منذ ان فقدت وحيدها . وانبعثت من مكانها الى جوار المائدة .. واسرعت بالطفل الى الفراش ترقده عليه .. ريثما تستخرج له من خزانة ملابسها لفائف قديمة كانت لابنها يوما ما .. وقد احتفظت بها على سبيل الذكرى .. وقامت باستبدال لفائف جافة بلفائف الطفل المبللة . ثم .. أخذت تداعبه وتلاطفه وتداعبه .. حتى استغرق في نومه الملائكي .

واصرت ان تستبقي اختها في ضيافتها بضعة ايام .. فضتها هي الى جوار الطفل الحبيب لم تفترق عنه لحظة واحدة .. تقوم على شئونه .. وتدلله .. وتهدهده .

ودب في كيانها المحطم نوع جديد من الحركة .. ودب في جسدها نشاط عجيب .. فاقبلت على الحياة .. تفتح قلبها للضوء .. للناس .. لكل شيء وانقب المنزل الموحش الكئيب الحزين .. الى مكان للحيوية والحرارة والحركة

وعندما تهيأت الاخت الصغرى للرحيل رافقتها اختها لوداعها حتى محطة القطار الذي سيقلها الى بلدتها وفي لحظة الوداع .. انحنت على الطفل تقبله وتداعبه .. وهو يبتسم لها .. ويمد ذراعه الصغيرتين نحوها .. وهي لا تريد ان تفلته من بين ذراعيها .. وقد ضمت عليه احضانها .. في قوة وحرارة وشغف .

واخيرا .. رفعت منها الدامعتين نحو شقيقتها . وطلبت منها في حياء ان تأخذها معها .. لتكون دائما الى جوار الطفل الحبيب .

ومضى بالجميع القطار .. في طريق العودة ..